القيم والأخلاق الفاضلة عند المؤرخين الأندلسيين في مؤلفاتهم (ابن حزم القرطبي وكتابه الأخلاق والسير أنموذجا)

د.محمد بشير حسن العامري

جامعة بغداد/كلية التربية للبنات/قسم التاريخ

الفقيه ابو محمد علي بن أحمد بن حزم القرطبي الاندلسي :-

نشاته وسيرته: من أهل قرطبة الفقيه العلامة الموسوعي من العلماء الاخيار الفضلاء تجول بالاندلس ، له رواية وهو من اجمع اهل الاندلس لعلوم الإسلام ومن أوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان والانسان والاخلاق ، ووفور حظ من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والاخبار له نحو ٤٠٠ مجلد من تاليفه ، وله في الآداب والشعر نفس واسع وباع طويل ، ولد سنة ٣٨٤هـ وتوفى سنة ٤٥٦ هـ تحدثت عنه المصادر الأندلسية ومجدته بعلمه وقلمه الرفيع الجميل ومؤلفاته الغزيرة المتنوعه في مختلف العلوم والآداب والفنون كما أورد عنه ابن خاقان(١) بقوله (فقه مستنبط ، ونبيه بقياسه مرتبط ، ماتكلم تقليداً ، ولاتعدى أختراعاً وتوليداً ، ماتمنت به الأندلس أن تكون كالعراق ، ولاحنت الانفس معه الى تلك الافاق ، اقام بوطنه ، مابرح عن عطنه، فلم يشرب ماء الفرات ، ولم يقف عيشه الثمرات ، ولكنه اربى على منَ من ذلك غذى ، وأزرى على من هنالك قد نعل وحذى تفرد بالقياس ، واقتبس نار المعارف أي اقتباس ، فناظر أهل فاس ، وصنف وحبر حتى افنى الانقاس ، ونبذ الدنيا، وقد تصدت له بافتن محيا، واهدت اليه اعبق عرف وريا، وخلع الوزارة وقد كسته ملاها ، والبسته حلاها ، وتجرد للعلم وطلبه ، وجد في اقتناء نخبة ، وله تأليف كثيرة ، وتصانيف أثيرة ، منها (الايصال الى فهم كتاب الخصال) وكتاب (الاحكام الأصول الاحكام) وكتاب (الفصل في الاهواء والملل والنحل) وكتاب(مراتب العلوم) وغير ذلك مما لم يظهر مثله من هنالك مع سرعة الحفظ ، وعفاف اللسان والحظ، ...

ولابن حزم في الاداب سبق لاينكر ، وبديهة لايعلم انه روى فيها ولافكر ، وله ايضاً .

ولي نحو اكناف العراق صبابةً ولاغرو ان يستوحش الكلف الصب

فأن ينزل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يبدو التاسف والـــكرب

هنالك يدري ان للعبد قصـةً وان كساد العلم أفتـــه القرب

أشتهر عن العلم الفقيه أبن حزم القرطبي أنه كان يحب الأندلس ويتحزب لها ولاسيما في رسالته (فضل اهل الاندلس وذكر رجالها) .

أهتم أبن حزم القرطبي في مجال دراسة الاديان والمذاهب الاسلامية المختلفة ، كان كتابه (الفصل في الملل والاهواء والنحل) المصدر الذي لايباريه سواه ، وفيه يناقش اليهود والنصارى ، ويجادلهم جداً لاعنيفاً يدل على تفهم عميق للنصوص الواردة في التوراة والانجيل ، وينافس ايضاًتعاليم الفرق الاسلامية الاخرى وقد اكسبه هذا الكتاب في الغرب لقب (مؤسس علم الاديان المقارن)

(١)الفتح بن خاقان القيسي الاندلسي ت ٥٠٣ او ٥٥٥ هـ / مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح اهل الاندلس تحقيق هدى شوكت بتهنام ، دار الفصون بيروت ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م ، ص ١٠٥- ١٠٨.

يفخر ابن حزم القرطبي في نسبه الاصالة التي ينبع فيها كما جاء على لسانه (١)

هنالك مجد الدهر طالت فروعه مهن مواطن صعد لانواكس

ملكنا ملوك الارض في كل جانب فحد مناوينا الحدود الاواكس

أذا شبت الحرب العنوان فبأسنا لكل مينع النيل في الناس فارس

أبا حوا بيوت النار كل ذخيرة حمتها شياطين الردي والابالس

فلما اتى الاسلام بالحق والهدى أقروا لنور حولته الاحامس

فسدت عرى الاسلام فيهم وعطلت بأسيافهم للمشركين مدارس

ظهرت في التاريخ طبقة من الحساد والحاقدين على عبقرية ابن حزم القرطبي في تاليف أمهات الكتب التي أحرق منها الامير المعتمد بن عباد حاكم أشبيلية، وقد وصف لنا ابن حزم مأحرق له بقوله (٢)

فأن تحرقوا القرطاس لاتحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير وحي حيث أستقلت ركائبي وينزل أن أترك ويدفن في قبري

والا قعدوا في المكاتب بداة فكم دون ماتبغون لله من ستر

أهتم أبن حزم القرطبي بوصف حالته النفسية وأنطباعاته وسلوكه وأحاسيسه بقوله (فأما ذو النفس الادبية ، الالوفة الحنانة ، الثابتة على العهد ، فلا شئ يعدل عبده مصيبة البين ... وأما أنا فالموت عندي أسهل من الفراق ، وما الهجر الاجالب للمكد فقط ، ويوشك أن دام أن يحدث أضراراً) (١)

شارك أبن حزم القرطبي في نقد السلبيات الصادرة من الكتاب وجادلهم باسلوب علمي منهجي موضوعي بعرض الادلة والنصوص ، كما ذكر لنا المؤرخ الاديب الاندلسي أبن بسام الشنتريني بقوله (وكان يحمل علمه هذا ويجادل من خالفه فيه ، على استرسال في طباعه وتدل بأسراره ، واستناداً الى العهد الذي اخذه الله على العلماء من عباده .. فلم يك يلطف صدعه بما عنده بتعريض ، ولا يزفه بتدريج ، بل بصك به معارضه صك الجندل ، وينشقه ملتقيه انشاق الخردل فينفرعنه القلوب ، ويوقع بها الندوب ..) (٢)

كان ابن حزم القرطبي يحمل من الاخلاق الفاضلة والنبل السامية التي تربى عليها في ظل الاسلام في الاندلس ، وهو يعتز بشخصية وتربيته وقد حدثنا بقلمه عن ذلك بقوله (لقد منحني الله عز وجل من الوفاء لكل من نمت الى بلقية واحدة ووهبني من المحافظة لمن يتذمم مني ولو بمحادثته ساعة حظا ، أناله شاكر وجامد منه مستمد ومستزيد . وماشئ أثقل على من الغدر . ولعمري ماسمعت نفسي قط في الفكرة في اضرار من بيني وبينه أقل ذمام ، وان عظمت جريريه وكثرت الى ذنوبه . ولقد دهمني من هذا غير قليل ، فما جزيت على السؤى الابالحسنى) (٣).

أمتاز ابن حزم القرطبي بالعطف والحنان والقلب الرقيق المحب للجمال والعشق الذي أبتلى به منذ صباه ، وقد صرح لنا بافعاله واقوله (... ومنهم جمود العين عديم الدمع وانا منهم . وكان الاصل في ذلك أدماني أكل الكندر لحفقان القلب ، وكان عرض لي في الصبا ، فأني لاصاب بالمصيبة الفادحة فأجد قلبي يتقطر ويتقطع واحس في قلبي غصة أمر من العلقم تحول بيني وبين توفيه الكلام حق مخارجه ، وتكاد تشوقني النفس أحياناً ولاتجيب عييني البتة الا في الندرة بالشئ اليسر من الدمع) (٤)

رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الاخلاق والزهد في الرذائل :-

من كلام الامام البحر الوزير الحافظ الحجة أمام النقاد أبي علي أبن احمد بن حزم الاندلسي الظاهري رحمة الله عليه ، ونسال الله تع الاعانة عنه وكرمه ، أنه على كل شيئ قدير ، وبعباد خبير بصير

بسم الله الرحمن الرحيم

رب أسألك العون اللهم صلي على محمد واله وسلم

قال أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفقيه الاندلسي .

١- الحمد لله على عظيم منته ، وصلى الله على سيدنا محمد عبده وخاتم أنبياء ورسله وسلم تسليماً كثيراً ، وأبرا اليه تعالى من الحول والقوة واستعينه على كل مايعصم في الدنيا من جمع المخاوف والمكاره ويخلص في الاخرى من كل هول وضيق

٢-أما بعد ، فأني جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة افادنيها واهب التمييز تعالى بمرور الايام وتعاقب بما منحني عز وجل من التهم بتصاريف الزمان والاشراف على احواله حتى انفقت في ذلك اكثر عمري واثرت تقييد ذلك بالمطالعة له والفكرة فيه على جميع اللذات التي تميل اليها اكثر النفوس وعلى الازدياد من فضول المال ودونت كل ماسبرت من ذلك بهذا الكتاب لينفع الله تعالى من يشاء من عباده ، ممن يصل اليه ، بما اتعبت فيه نفسي ، واجتهدتها فيه واطلت فيه فكري ، فياخذه عفواً ، واهديته اليه هنيئاً فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال وعقد الاملاك اذا تدبره ويسره الله تعالى لاستعماله ، وانا رابح في ذلك من الله تعالى أعظم الأجر لنيتي في نفع عباده وأصلاح مافسد من أخلاقهم ومداواة علل نفوسهم وبالله تعالى أستعين ، وحسنا الله تعالى ونعم الوكيل .

*نشر مجموعة الروائع الانسانية_ الاونسكو، السلسلة العربية، ترجم الى الفرنسية السيدة ندى توميش، اللجنة الدولية لترجمة الروائع،بيروت ١٩٦١

٣- لذة العاقل بتمييزه ولذة العالم بعلمه ، ولذة الحكيم بحكمته ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده اعظم من لذة الاكل باكله والشارب بشربه والواطئ بوطئه والكاسب بكسبه ، واللعب بلعبه ، والامر بأمره وبرهان ذلك ان الحكيم والعالم والعاقل والعامل ومن ذكرنا واجدون لسائر اللذات التي سينما كما يجدها المنهلك وانما يحكم في الشيئين من عرفهما ، لا من عرف اخدهما ولم يعرف الاخر ،

٤- أذا تعقبت الامور كلها فسدت عليك وانتهت في اخر فكرتك باضمحلال جميع احول الدنيا الى الحقيقة انما هي العمل للاخرة فقط ، لان كل أمل ظفرت بهفعقباه حزن اما بذهابه عنك ، وانما بذهابك عنه ، ولا بد من احد هذين السبيلين الا العمل لله عز وجل ، فعقباه على كل حال سرور في عاجل وآجل . اما في العاجل فقلة الهم بما يهتم به الناس وانك به معظم من الصديق والعدو واما في الاجل فالجنة .

٥- تطلبت غرضاً يستوي الناس كلهم في استحسانه وفي طلبه فلم أجده الا واحداً ، وهو طرد الهم . فلما تدبرته علمت ان الناس كلهم لم يستووا في أستحسانه فقط ولا في طلبه فقط ، ولكن رايتهم على اختلاف اهوائهم ومطاليبهم وتباين هممهم ومراداتهم لايتحركون حركة اصلاً الا فما يرجون به طرد الهم ولاينطقون بكلمة اصلاً الا فيما يعانون به أزاحة عن انفسهم فمن مخطئ وجه سبيله ومن مقارب للخطاء ومن مصيب ، وهو الاقل من الناس في الاقل من أموره ، والله ليعلم .

فطرد الهم مذهب قد اتفقت الامم كلها منذ خلق الله تعالى العالم الى ان يتناهى عالم الابتداء ويعاقبه عالم الحساب على ان لايعتمدوا بسعيهم شيئاً سواه . وكل غرض غيره ففي الناس من لايستحسنه ، أذ في الناس من لادين ولا الحق ، وفي الناس من لايؤثر الحمول بهواه وارادته على بعد الصيت ، وفي الناس من لايريد المال ويؤثر عدمه على وجوده ككثير من الانبياء ، عليهم السلام ، ومن تلاهم من الزهاد والفلاسفة ، وفي الناس من يبغض اللذات

بطبعه ويستنقص طالبها كمن ذكرنا من المؤثرين فقد المال على اقتنائه ، وفي الناس من يؤثر الجهل على العلم كاكثر من نرى من العامة وهذه هي اغراض الناس التي لاغرض لهم وليس في العالم مذ كان الى ان يتناهى احد يستحسن الهم ، ولا يريد الا طرحه عن نفسه .

٦- فلما أستقر في نفسي هذا العلم الرفيع ، وانكشفت لي هذا السر العجيب وأنار الله تعالى لفكري هذا الكنز العظيم بحثت عن سبيل موصلة على الحقيقة الى طرد الهم الذي هو المطلوب النفيس الذي اتفق جميع انواع الانسان الجاهل منهم بالعمل للاخرة .

٧- والا فانما طلب المال طلابه ليطردوا به عن انفسهم هم الفقر وانما طلب الصوت من طلبه ليطرد عن نفسه هم الاستعلاء عليها وانما طلب اللذات من طلبها ليطرد عن نفسه هم فوتها ، وانما طلب العلم من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الجهل ، وانما هش الى سماع الاخبار ومحادثة الناس من يطلب ذلك ليطرد بها عن نفسه هم التوحيد ومغيب احوال العالم عنه وانما اكل من اكل وشرب من شرب ، ونكح من نكح ، ولبس من لبس ، ولعب من لعب ، واكتنز من اكتنز وركب من ركب ومشى من مشى وتودع من تودع ليطردوا عن انفسهم أضداد هذه الافعال وسائر الهموم .

٨- وفي كل ماذكرنا لمن تدبره هموم حادثة لابد فيها من عوارض تعرض في خلالها تعذر مايتعذر منها وذهاب ماوجد منها والعجز عنه لبعض الآفات الكائنة ، وايضاً نتائج سوء تنتج بالحصول على ما حصل عليه من كل ذلك من خوف منافس او طعن حاسد او اختلاس راغب وأقتناء عدو مع الذم والاثم وغير ذلك . ووجدت العمل للاخرة سالماً من كل عيب خالصاً من كدر ، موصلاً الى طرد الهم على الحقيقة ووجدت العالم للاخرة ان امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يسر اذرجاؤه في عاقبة ماينال به عون له على ما يطلب وزائد في الغرض الذي أياه يقصد ووجدته ان عاقه عما هو بسبيله عائق لم يتهم أذ ليس مؤاخذاً بذلك فهو غير مؤثر فما يطلب ورايته ان قصد بالاذى ان قصد بالاذى سر وان نكبته سر وان تعب فيما سلك فيه سر ، فهو في سرور متصل ابداً ، وغيره بخلاف ذلك ابدا فاعلم انه مطلوب واحد ، وهو طرد الهم ، وليس اليه الا طريق واحد ، وهو العمل لله تع فما عدا هذا فضلال وسخف .

٩- لاتبذل نفسك الا فيما هو اعلى منها ، وليس ذلك الا في ذات الله عز وجل ، في دعاء الى حق ، وفي حماية الحريم ، وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تع ، وفي نصر مظلوم وباذل نفسه في عرض دنيا ، كبائع الياقوت بالحصا .

١٠- لامروءه لمن لادين له .

١١- العاقل لايرى لنفسه ثمناً الا الجنة .

١٢- لابليس في ذم الرياء حباله ، وذلك انه رب ممتنع من فعل خير خوف ان يظن به الرياء ، فاذا اطرفك منه هذا فامض على فعلك ، فهو شديد الالم عليه

باب عظيم من ابواب العقل والراحة:

١٣- من قدر انه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون

١٤- من حقق النظر وارض نفسه على السكون الى الحقائق وان المها في اول صدمة ، كان أغتباطه بذم الناس أياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم أياه لان مدحهم أياه أن كان بحق وبلغه مدحهم له اسرى ذلك فيه العجب فافسد بذلك فضائله ، وان كان بحق وبلغة مدحهم له اسرى ذلك فيه العجب فافسد بذلك فضائله ، وان كان بباطل فبلغه ، فسره فضائله ، وان كان بباطل فبلغه ، فسره فقد صار مسروراً بالكذب ، وهذا نقص شديد واما ذم الناس اياه فان كان بحق فبلغه فربما كان ذلك سبباً الى تجنبه ما يعاب عليه وهذا حظ عظيم لايزهد فيه الا ناقص وان كان بباطل فبلغه فصبر ، اكتسب فضلاً زائداً بالحلم والصبر وكان مع ذلك غانماً لانه ياخذ حسنات من ذمه بالباطل فيحظى بها في دار الجزاء احوج مايكون الى النجاة باعمال لم يتعب فيما ولاتكلفها ، وهذا حظ رفيع لايزهد فيه الا مجنون واما ان لم يبلغه مدح الناس اياه فكلامهمخ وسكوتهم سواء ليس ذمهم أياه لانه غانم للاجر على كل بلغه ذمهم او لم يبلغه .

١٥- ولولا قول رسول الله عليه وسلم في الثناء الجسن : (ذلك عاجل بشرى المؤمن) لوجب ان يرغب العاقل في الذم بالباطل اكثر من رغبته في المدح بالحق . ولكن اذ جاء هذا القول فانما تكون البشرى بالحق لابالباطل فانما تجب البشرى بما في الممدوح لابنفس المدح .
١٦- ليس بين الفضائل والرذائل ولابين الطاعات والمعاصي الا نفار النفس وانسها فقط فالسعيد من انست نفسه بالفضائل والطاعات ونفرت من الرذائل والمعاصي والشقي من انست نفسه بالرذائل والمعاصي ونفرت من الفضائل والطاعات وليس ها هنا الا صنع الله تسع وحفظه .
١٧- طالب الآخرة متشبه بالملائكة ، وطالب الشر متشبه بالشياطين ، وطالب الصوت والغلبة متشبه بالسباع ، وطالب اللذات متشبه بالبهائم وطالب المال لعين المال لاليننفقه في الواجبات والنوافل المحمودة اسقط وارذل من ان يكون له في شيئ من الحيوان شبه ، ولكنه يشبه العذرات التي في الكهوف ، في المواضع الوعرة لاينفع بها شيئ من الحيوان الا ماقل من الطائر ، ثم تحف الشمس والريح مابقى منه كذلك المال الذي لاينفق في معروف .
١٨- العاقل لا يغتبط بصفة يفوقه فيها سبع او بهيمة او جماد وانما يغتبط بتقدمه في الفضيلة التي أبانه الله بها عن السباع والبهائم والجمادات ، وهي التمييز الذي يشارك فيه الملائكة .
١٩- فمن سر بشجاعته التي يضعها في غير موضوعها لله تسع فليعلم ان النمر اجرأ منه ، وان الاسد والذنب والفيل أشجع منه .
٢٠- ومن سر بقوة جسمه فليعلم ان البغل والثور والفيل أقوى منه جسماً .
٢١- ومن سر بحمله الاثقال ، فليعلم ان الحمار احمل منه .
٢٢- ومن سر بحسن صوته فليعلم ان كثيراً من الطير احسن منه صوتاً ، وان اصوات المزامير الذ واطرب من صوته .
٢٣- فاي فخر وأي سرور فما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه
٢٤- لكن من قوي تمييزه ، واتسع علمه وحسن عمله فليغتبط بذلك ، فأنه لايتقدمه في هذه الوجوه الآ الملائكة وخيار الناس .
٢٥- قول الله تسع : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى) جامع لكل فضيلة ، لان نهى النفس عن الهوى هو ردعها عن الطبع الغضبي وعن الطبع الشهواني ، لان كليهما واقع تحت موجب الهوى ، فلم يبق الا أستعمال النفس للنطق الموضوع فيها التي به بانت عن البهائم والحشرات والسباع .
٢٦- قول رسول الله صلعم للذي استوصاه (لاتغضب)وأمره عليه السلام ان يحب المرء لغيره مايحب المرء لغيره مايحب لتفسه ، جامعان لكل فضيلة لان في نهيه عن الغضب ردع النفس ذات القوة الغضبية عن هواها وفي امره عليه السلام بأن يحب المرء لغيره مايحب لنفسه ردع النفوس عن القوة الشهوانية ، وجمع لأزمة العدل الذي هو فائدة النطق الموضوع في النفس الناطقة .
٢٧- رأيت أكثر الناس – الا من عصم الله تسع وقليل ماهم – يتعجلون الشقاء والهم والتعب في الدنيا ، ويحتقبون عظيم الاثم الموجب .
للنار في الآخرة بما لايحظون بما لايحظون معه ينفع اصلاً من نياب خبيئة يضبون عليها من تمني الغلاء المهلك للناس وللصغار ومن لاذنب له وتمنى أشد البلاء لمن او يوجب كونه ، وأنهم لو صفوا نيابهم وحسنوها لتعجلوا الراحة لأنفسهم وتفر غوا بذلك عظيم الاجر في المعاد من غير ان يؤجر ذلك شيئاً مما يريدونه أو يمنع كونه . فاي غبن أعظم من هذه الحال التي نبهنا عليها ، وأي سعد أعظم من التي دعونا اليه ؟

٢٨- أذا حققت مدة الدنيا لم تجدها الا الان الذي هو أفضل الزمانين فقط . وأما ما مضى ومالم يات فمعدومان كما لم يكن فمن اضل ممن يبيع باقياً خالداً بمدة هي أقل من كر الطرف؟
٢٩- اذا نام المرء خرج عن الدنيا ونسى كل سرور وكل حزن. فلو رتب نفسه في يقظته على ذلك ايضاً لسعد السعادة التامة .

٣٠- من أساء الى أهلة وجيرانه فهو أسقطهم ، ومن من أساء اليه منهم فهو مثلهم ، ومن لم يكافئهم بأساءتهم فهو سيدهم وخيرهم وأفضلهم .

فصل في العلم :

٣١- لو لم يكن من فضل العلم الا ان الجهال يهابونك ويجلونك وأن العلماء يحبونك ويكرمونك ، لكان ذلك سبباً الى وجوب طلبة طلبه . فكيف بسائر فضائله في الدنيا والاخرة .

٣٢- ولو لم يكن من نقص الجهل الا ان صاحبه يحسد العلماء ويغظبه نظراؤه من الجهال لكان ذلك سبباً الى وجوب الفرار عنه فكيف بسائر رذائله في الدنيا والاخرة .

٣٣- لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به الا انه يقطع المشغل به عن الوسواسى المضنية ومطارح الامال التي لاتفيد غير الهم وكفاية الافكارالمؤملة للنفس ، لكان ذلك أعظم داع اليه فكيف وله من الفضائل مايطول ذكره ومن أقلها مايذكرنا مما يحصل عليه طالب العلم ، وفي مثله أتعب ضعفاء الملوك أنفسهم ، فتشاغلوا عما ذكرنا بالشطرنج والنرد والحمر والاغاني وركض الدواب في طلب الصيد وسائر الفصول التي تعود بالمضرة في الدنيا والاخرة واما فائده فلا .

٣٤- لو تدبر العالم في مرور ساعاته ماذا كفاه العلم من الذل بتسلط الجهال ومن الهم بمغيب الحقائق عنه ومن الغبطة بما قد باد له وجهه من الامور الخفية عن غيره لزاد حمداً لله عز وجل وعبطة بما لديه من العلم ورغبة في المزيد منه .

٣٥- من شغل نفسه بأدنى نفسه بأدنى العلوم وترك أعلاها وهو قادر عليه كان كزارع الذرة في الأرض التي يجود فيها البر وكغارس الشعراء حيث يزكو النخل والزيتون .

٣٦- نشر العلم عند من ليس من أهله مفسد لهم كاطعامك العسل والحلوى من به احتراق وحمى ، وكتشميك المسك والعنبر لمن به صداع من احتدام الصفراء .

٣٧- الباخل بالعلم والوم من الباخل بالناء ، لان الباخل بالماء أشفق من فناء مابيده ، والباخل بما يفتى على النفقة ولايفارقه مع البذل .

٣٨- من مال بطبعه الى علم ما ، وان كان أدنى من غيره ، فلا يشغله بسواه فيكون كغارس النارجيل بالأندلس وكغارس الزيتون بالهند ، وكل ذلك لاينجب .

٣٩- أجل العلوم ما قربك من خالقك تسع وما اعانك على الوصول الى رضاه .

٤٠- أنظر في المال والحال والصحة الى من دونك وأنظر في الدين والعلم والفضائل الى من فوقك .

٤١- العلوم الغامضة كالدواء القوي يصلح الاجساد القوية ويهلك الاجساد الضعيفة ، وكذلك العلوم الغامضة تزيد العقل القوي وتصفيه من كل آفة ، وتهلك ذا العقل الضعيف .

٤٢- من الغموض على الجنون ما الو غاصه صاحبه على العقل لكان احكم من الحسن البصري وأفلاطون الاثيني وبزر جمهر الفارسي .

٤٣- وقف العقل عند انه لاينفع ان لم يؤيد بتوفيق في الدين او بيعد في الدنيا .

٤٤- لاتضر بنفسك في ان تجرب بها الاراء الفاسدة لترى المشير بها فسادها فان ملامة ذي الرأي الفاسد لك على مخالفته وأنت ناج من المكاره خير لك من أن يقدرك ويندم كلاكما وانت قد حصلت في مكاره .

٤٥- أياك وان تسر غيرك بما تسوه به نفسك فيما لم توجبه عليك شريعة او فضيلة .

٤٦- وقف العلم عند الجهل بصفات الباري عز وجل .

٤٧- لاآفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيما وهم من غير أهلها ، فانهم يجهلون أنهم يعلمون ويفسدون ويقدرون انهم يصلون .

٤٨- من أراد خير الاخرة وحكمة الدنيا وعدل السيرة والاحتواء على محاسن الاخلاق كلها وأستحاق الفضائل بأسرها فليقتد بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليستعمل أخلاقه وسيره ماأمكنه ، أعاننا الله على الاتساء به بمنه ، آمين آمين .

٤٩- غاظني أهل الجهل مرتين من عمري أحداهما بكلامهم فيما لايحسنونه ايام جهلي ، والثانية بسكوتهم عن الكلام بحضرتي أيام علمي فهم أبدا ساكتون عما ينفعهم ناطقون فيما يضرهم .

٥٠- وسرني أهل العلم مرتين من عمري أحداهما يتعليمي ايام جهلي ، والثانية بمذاكراتي أيام عملي .
٥١- من فضل العلم والزهد في الدنيا أنهما لا يؤتيهما الله عز وجل الا أهلها ومستحقهما . ومن نقص علو أحوال الدنيا من المال والصوت ان اكثر مايقعان ففي غير أهلها وفيمن لايستحقهما .
٥٢- من طلب الفضائل لم يساير الا أهلها ولم يرافق في تلك الطريق الاكرم صديق من أهل المواساة والبر والصدق وكرم العشيرة والصبر والوفاء والامانة والحلم وصفاء الضمائر وصحة المود .
٥٣- ومن طلب الجاه والمال واللذات لم يساير الاأمثال الكلاب الكلبة والثعالب الحلبة ولم يرافق في تلك الطريق الاكل عدو في المعتقد خبيث الطبيعة .
٥٤- منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة ، وهو أنه يعلم حسن الفضائل ، فياتها ولو في الندرة ، ويعلم قبح الرذائل فيجتنبها ولو في الندرة ، ويستمع الثناء الحسن فيرغب في مثله ، والثناء الردئ فينفر منه فعلى هذه المقدمات وجب أن يكون للعلم حصة في كل فضيلة وللجهل حصة في كل رذيلة ، ولايأتي الفضيلة ممن لم يتعلم العلم الا صافي الطبع جداً ، فاضل التركيب وهذه منزلة خص بها النبيون عليهم السلام والصلوات ، لان الله تسع علمهم الخير كله دون أن يتعلموه من الناس .
٥٥- وقد رأيت من عمار العامة من يجري من الاعتدال وحميد الاخلاق الى مالايتقدمه فيه حكيم عالم رائض لنفسه ، ولكنه قليل جداً . ورأيت ممن طالع العلوم وعرف عهود الانبياء عليهم السلام ووصايا الحكماء ، وهو لا يتقدمه في خبث السيرة وفساده العلانية والسريرة شرار الخلق ، وهذا كثير جداً ، فعملت أنها مواهب وحرمان من الله تسع .

فصل في الاخلاق والسيرة

٥٦- أحرص على ان توصف بسلامة الجانب ، وتحفظ من ان توصف بالدهاء فيكثر المتحفظون منك ، حتى ربما اضر ذلك بك وربما قتلك .
٥٧- وطن نفسك على ما تكره يقل همك أذا أتاك ماتحب مما لم تكن قدرته .
٥٨- أذا تكاثرت الهموم سقطت كلها .
٥٩- الغادر يفي بالمحدود والوافي بغدر بالمحدود ، والسعيد كل السعيد في دنياه من لم يضطره الزمان الى اختبار الاخوان .
٦٠- لا تفكر فيمن يؤذيك ، فأنك أن كنت مقبلاً فهو هالك ، وسعدك بكفيك ، وان كنت مدبرا فكل احد يؤذيك . طوبي لمن علم من عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها .
٦١- الصبر على الجفاء ينقسم ثلاثة أقسام فصبر عمن يقدر عليك ولاتقدر عليه ، وصبر عمن يقدر عليه وصبر عمن تقدر عليه ولايقدر عليك ، وصبر عمن لايقدر عليه ولاقدر عليك . فالاول ذل ومهانة وليس من الفضائل . والرأي لمن خشي ما هو أشد مما يصبر عليه ، المتاركة والمباعدة ، والثاني فضل وبر وهو الحلم على الحقيقة ، وهو الذي يوصف به الفضلاء ، والثالث ينقسم قسمين ، اما ان يكون الجفاء ممن لم يقع منه الا على سبيل الغلطة والوهلة ويعلم قبح ما اتى به ويندم عليه فالصبر عليه فضل وفرض وهو حلم على الحقيقة .
واما من كان لايدري مقدار نفسه ويظن ان لها حقاً يستطيل به ، فلا يندم على ماسلف منه فالصبر عليه ذل للصابر وأفساد للمصبور عليه ، لانه يزيد أستشراء ، والمقارضة له سخف والصواب أعلامه بأنه كان ممكنا ان ينتصر منه ، وانه أنما ترك ذلك أسترذالاً له فقط وصيانة عن مراجعته ، ولا يزاد على ذلك وأما جفاء السفلة فليس جوابه الا النكال وحده .

٦٢- من جالس الناس لم يعدم هماً يؤلم نفسه وأثماً يندم عليه في معاده وغيظاً ينضج كبده وذلاً ينكس همته فما الظن بعد بمن خالطهم كالنار تدن بها ولا تخالطها .
٦٣- لو لم يكن في مجالسة الناس الا عيباً لكفيا أحدهما الاسترسال عند الانس بالاسرار المهلكة القاتلة التي لو لا المجالسة لم يبح بها البائح ، والثاني مواقعه الغلبة المهلكة في الاخرة فلا سبيل الى السلامة من هاتين البليتين الا بالانفراد عن المجالسة جملة .

٦٤- لاتحقرن شيئاً من عمل غد ، أن تحققه بأن تعجله اليوم وأن قل فأن من قليل الاعمال يجتمع كثيرها وربما أعجز أمرها عند ذلك فبطل الكل .
٦٥- ولا تحقر شيئاً مما ترجو به تثقيل ميزانك يوم البعث أن تعجله الان ن وأن قل فانه يحط عنك كثيراً ، لو اجتمع لقذف بك في النار .
٦٦- الوجع والفقر والنكبة والخوف لايحس اذاها الا من كان فيها ، ولا يعلمه من كان خارجاً عنها ، وفساد الرأي والعار والاثم لا يعلم قبحها الا من كان خارجاً عنها ، وليس يراه من كان داخلاً فيها .
٦٧- الامن والصحة والغني لايعرف حقها الامن كان خارجاً عنها وليس يعرفه من كان فيها . وجودة الرأي والفضائل وعمل الأخرة لايعرف فضلها الا من كان أهلها ، ولايعرفه من لم يكن منها .
٦٨- أول من يزهد في الغادر من غدر له الغادر ، وأول من يمقت شاهد الزور من شهد له به واول من تهون الزانية في عينه الذي يزني بها .
٦٩- ما رأيناه شيئاً فسد فعاد الى الصحته الا بعد لأي أي بعد شدة فكيف بدماغ يتوالى عليه فساد السكر كل ليلة ، وأن عقلا زين لصاحبه تعجيل أفساده كل ليلة لعقل ينبغي ان يتهم .
٧٠- الطريق تبرم ، الزوايا تكرم ، وكثرة المال ترغب وقلته تقنع .
٧١- قد ينحس العاقل بتدبيره ولا يجوز ان يسعد الاحمق بتدبيره .
٧٢- لا شيئ أضر على السلطان من كثرة المتفرغين حواليه . فالحازم يشغلهم بما لايظلمهم فيه ، فأن لم يفعل شغلوه بما يظلمونه فيه .
مقرب اعدائه قاتل نفسه .

٧٣- كثرة وقوع العين على الشخص يسهل أمره ويهونه .
٧٤- التهويل بلزوم زي ما والا كفهرار وقلة الانبساط ستائر جعلها الجهال الذين مكنهم الدنيا أمام جهلهم .
٧٥- لا يغتر العاقل بصداقة حادثة أيام دولته فكل احد صديقه يوئذ .
٧٦- اجهد في ان تستعين في امورك بمن يريد منها لنفسه مثل ما تريد لنفسك ، ولا تستعن فيها بمن حظه من غيرك كحظه منك .
٧٧- لاتجب عن كلام نقل اليك عن قائل حتى توقن أنه قاله فأن من نقل اليك كذباً رجع من عندك بحق .
٧٨- ثق بالمتدين وأن كان على غير دينك ، ولا تثق بالمستخف وان أظهر انه على دينك . من أستخف بحرمات الله تسع فلا تامنه على شيئ مما تشفق عليه
٧٩- وجدت المشاركين بارواحهم اكثر من المشاركين باموالهم هذا شيئ طال اختباري أياه ، ولم اجد قط على طول التجربة سواه ، فاعتني معرفة العلة في ذلك حتى قدرت أنها طبيعة في البشر .
٨٠- من قبيح الظلم الانكار على من اكثر الاساءة اذا احسن في الندرة .
٨١- من استراح من عدو واحد حدث له أعداء كثيرة .
٨٢- أشبه مارايت بالدنيا خيال الظل وهي تماثيل مركبة على مطحنة خشب تدار بسرعة فتغيب طائفة وتبدو اخرى .
٨٣- طال تعجبي في الموت وذلك أني صحبت اقواماً صحبة الروح للجسد من صدق المودة ، فلما ماتوا رأيت بعضهم في النوم ولم ار بعضهم . وقد كنت عاهدت بعضهم في الحياة على التزاور في المنام بعد الموت ان امكن ذلك فلم اره في النوم بعد ان تقدمني الى دار الاخرة ، فلا أدري أنسي ام شغل .
٨٤- غفلة النفس ونسيانها ماكانت فيه في دار الابتداء قبل حلولها في الجسد كغفلة من وقع في طين عمر عن كل ماعهد وعرف قبل ذلك . ثم اطلت الفكر ايضاً في ذلك فلاح لي شعب زائد من البيان وهو اني رأيت النائم اذ همت نفسه بالتخلي من جسده وقوي حسها حتى تشاهد الغيوب قد نسيت ماكان فيه قبيل نومها نسياناً تاماً البته على قرب عهدها به ، وحدثت لها احوال اخر ، وهي في كل ذلك ذاكرة حساسة متلذذة آلمة ، ولذة النوم محسوسة في حاله ، لان النائم يلتذ ويحتلم ويخاف ويحزن في حال نومه .
٨٥- أنما تانس النفس بالنفس فأما الجسد فمستثقل مبروم به ، ودليل ذلك أستعجال المرء يدفن جسد حبيبه اذا فارقته نفسه وأسفه لذهاب النفس وان كانت الجثة حاضرة بين يديه .

٨٦- لم ار لابليس أصيد ولا أقبح ولا احمق من كلمتين ألقاهما على أستسهال الانسان ان يسئ اليوم لانه قد أساء أمس أو ان يسئ في وجه ما لانه قد أساء في غيره فقد صارت هاتان الكلمتان عذراً مسهلتين للشر ومدخلتين له في حد ما يعرف ويحمل ولا ينكر .

٨٧- أستعمل سوء الظن حيث تقدر على توفيته حقه في التحفظ والتأهب ، واستعمال حسن الظن حيث لا طاقة بك على التحفظ فتربح راحة النفس .

٨٨- حد الجود وغايته ان تبذل الفضل كله في وجوه البر وأفضل ذلك في الجار المحتاج وذي الرحم الفقير ، وذي النغمة الذاهبة والأحضرفاقة ومنع الفضل من هذه الوجوه داخل في البخل وعلى قدر التقصير والتوسيع في ذلك يكون المدح والذم ، وما وضع في غير هذه الوجوه فهو تبذير ، وهو مذموم وما بذلت من قوتك لمن هو امس حاجة منك فهو فضل وأيثار وهو خير من الجود وما منع من هذا فهو لاحمد ولا ذم وهو أنتصاف .

بذل الواجبات فرض ، وبذل ما فضل عن القوات جود . والايثار على النفس من القوات بما لا تهلك على عدمه فضل ، ومنع الواجبات حرام ، ومنع مافضل عن القوت بخل وشح . والمنع من الايثار ببعض القوات عذر ومنع النفس او الاهل القوات او بعضه نتن ورداله ومعصية ، والسخاء بما ظلمت فيه او اخذته بغير حقه ظلم مكرر والذم جزاء ذلك لاالحمد لانك انما تبذل مال غيرك على الحقيقة لا مالك وأعطاء الناس حقوقهم مما عندك ليس جوداً ولكنه حق.

٨٩- حد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين والحريم وعن الجار المظطهد وعن المستجير المظلوم وعن الهضيمة ظلماً في المال والعرض وسائر سبل الحق سواء قل من يعارض أو كثر التقصير عما ذكرنا جبن وخور وبذلها في عرض الدنيا تهور وحمق وأحمق من ذلك من بذلها في المنع عن الحقوق والواجبات قبلك او قبل غيرك . وأحمق من ذلك من بذلها في المنع عن الحقوق والواجبات قبلك او قبل غيرك . وأحمق من هؤلاء كلهم وقوم شاهدتهم لايدرون فيما يبذلون أنفسهم ، فتارة يقاتلون زيداً عن عمرو ، وتارة يقاتلون عمراً عن زيد ، ولعل ذلك يكون في يوم واحد فيتعرضون للمهالك بلا معنى فينقلبون الى النار او يفرون الى العار . وقد أنذر بهؤلاء رسول الله ضلعهم في قوله :(يأتي على الناس زمان لايدري القاتل فيم قتل ولا المقتول فيم قتل) .

٩٠- حد العفة ان تغض بصرك وجميع جوارك عن الاجسام التي لا تحل لك ، فما عذا هذا فهو عهر ، وما نقص حتى يمسك عما أحل الله تسع فهو ضعف وعجز .

٩١- حد العدل ان تعطي من نفسك الواجب وتاخذه ولا تعطيه وحد الكرم أن تعطي من نفسك الحق طائعاً وتتجافى عن حقك لغيرك قادراً ، وهو فضل أيضاً وكل جود كرم وفضل ، وليس كل كرم وفضل جوداً . فالفضل أعم والجود أخص ، أذ الحلم فضل وليس جوداً والفضل فرض زدت عليه ناقلة .

٩٢- أهمال ساعة يفسد رياضة سنة .

٩٣- خطأ الواحد خير في تدبير الامور من صواب الجماعة التي لايجمعها واحد ، لان خطأ الواحد في ذلك يستدرك ، وصواب الجماعة يضري على استدامة الاهمال وفي ذلك الهلاك .

٩٤- نوار الفتنة لا يعقد .

٩٥- كانت في عيوب ، فلم أزل بالرياضة وأطلاعي على ماقلت لانبياء صلوات الله عليهم والافاضل من الحكماء المتاخرين والمتقدمين في الاخلاق وفي آداب النفس أعاني مداواتها ، حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنه . وتمام العدل ورياضة النفس والتصرف بأزمة الحقائق هو الاقرار بها ليتعظ بذلك متعظ يسوماً ان شاء الله .

٩٦- فمنها كلف في الرضاء وأفراط في الغضب ، فلم أزل أداوي ذلك حتى وقفت عند ترك أظهار الغضب جملة بالكلام والفعل والتخبط ، وامتنعت مما لايحل من الانتصار وتحملت من ذلك ثقلاً شديداً وصبرت على مضض مؤلم كان ربما أمرضني وأعجزني ذلك في الرضى وكأني سامحت نفسي في ذلك ، لانها تمثلت ان ترك ذلك لؤم .

٩٧- (ومنها) دعابة غالبة ، فالذي قدرت عليه فيها أمساكي عما يغضب الممازح ، وسامحت نفسي فيها أذ رأيت تركها من الانغلاق ومضاهياً للكبر .
٩٨- (ومنها) عجب شديد فناظر عقلي نفسي أحتقار قدرها حملة وأستعمال التواضع .
٩٩- (ومنها) حركات كانت تولدها غرارة الصباء وضعف الاعضاء فقصرت نفسي على تركها فذهبت .
١٠٠-(ومنها) محبة في بعد الصيت والغلبة ، فالذي وقفت عليه معاناة هذا الداء الامساك فيه عما لايحل في الديانة ، والله المستعان على الباقي مع أن ظهور النفس الغضبية أا كانت منقادة للناطقة فضل وخلق محمود .
١٠١-(ومنها) أفراط في الانفة بغضت الى أنكاح الحرم جملة بكل وجه وصعب ذلك في
١٠٢-(ومنها) عيبان قد سترهما الله تسع وأعمان على مقاومتها ، وأعان بلطفه عليها ، فذهب أحدهما البتة ولله الحمد . وكأن السعادة كانت موكلة بي ، فاذا لاح منه طالع قصدت طمسه . وطاولني الثاني منها فكان أذا ثارت منه مدوة نبضت عروقة فيكاد يظهر ثم يسر الله تسع قدعه بضروب من لطفه تسع حتى أخلد.
١٠٣-(ومنها) حقد مفرط قدرت بعون الله تسع على طيه وسيره ، وغلبته على أظهار جميع نتائجه ، وأما قطعه البيته فلم أقدر عليه وأعجزني معه أن أصادق من عاداني صحيحة أبداً.
١٠٤-وأما سوء الظن فيعده قوم عيباً على الاطلاق وليس كذلك الا أذا أدى الى ما لا يحل في الديانة او الى مايقبح في المعاملة والا فهو حزم والحزم فضيلة .
١٠٥-وأما الذي يعيبني به جهال اعدائي من اني لا أبالي – فيما اعتقد حقاً – عن مخالفة ولو انهم جميع من على ظهر الارض واني لابلي موافقة اهل بلادي في كثير من زيهم الذي قد تعودوه لغير معنى فهذه الحصلة عندي من اكبر فضائلي التي لامثيل لها ولعمري لو لم تكن في (وأعوذ بالله) لكانت من اعظم متمنياتي وطالباني عند خالقي عز وجل وانا اوصي بذلك كل ربه تسع وغبن عقله او الم نفسه وجسده وتكلف مؤونة لافائدة فيها .
١٠٦-وقد عابني ايضاً بعض من غاب عن معرفة الحقائق اني لا الم لنيل من نال مني ، واني أتعدى ذلك من نفسي الى اخواني فلا امتعض لهم اذا نيل منهم بحضرتي .
١٠٧-وانا اقول ان من وصفني بذلك فقد اجمل الكلام ولم يفسره والكلام اذا اجمل اندرج فيه تحسين القبيح وتقبيح الحسن . الا ترى لو ان قائلاً قال : (أن فلاناً يطأ أخته) ، لفحش ذلك ولاستقبحه كل سامع له حتى اذا فسر فقال : (هي اخته في الاسلام) ظر فحش هذا الاجمال وقبحه .
١٠٨-وأما انا فاني ان قلت لا آلم لنيل من نال مني لم اصدق ، فالألم في ذلك مطبوع مجبول في البشر كلهم . لكني قد قصرت نفسي على ان لا اظهر لذلك غضباً ولاتخبطاً ولاتهيجاً ، فأن تيسر لي الامساك عن المقارضة جملة بان اتاهب لذلك فهو الذي اعتمد عليه بحول الله تسع وقوته ، وان بادرني الامر لم اقارض الا بكلام مؤلم غير فاحش اتحرى فيه الصدق ولا أخرجه مخرج الغضب ولا الجهل وبالجملة فاني كاره لهذا الا لضرورة داعية اليه مما ارجوا به قمع المستشري في النيل مني او قدع الناقل الى اذاكثر الناس محبون لاسماع المكروه من يسمعونه اياه على السنة غيرهم ، ولا شيئ اقدع لهم من هذا الوجه فانهم يكفون به نقلهم المكاره (على السنة الناس) الى الناس وهذا شيئ لا يفيد الا افساد الضمائر وادخال النمائم فقط .
١٠٩-ثم بعد هذا فان النائل مني لا يخلو من احد وجهين لاثالث لهما : أما أن يكون صادقاً . فان كان كاذباً فلقد عجل الله لي الانتصار منه على لسان نفسه بان حصل في جملة اهل الكذب وبان نبه على فضلي بأن نسب الي ما انا منه برئ العرض وما يعلم اكثر السامعين له كذبه اما في وقته ذلك وأما بعد بحثهم عما قال . وأن كان صادقاً فأنه لا يخلو من احد ثلاثة اوجه : أما ان اكون شاركته في امر استرحت اليه أستراحة المرء الى من يقدر فيه ثقة وامانة ، فهذا اسوأ الناس حالة ، وكفى به سقوطاً وضعه . وأما أن يكون عابني بما يظن انه عيب وليس عيباً ، فقد كفاني جهله شأنه وهو المعيب لا من عاب . وأما ان يكون عابني بعيب هو في على الحقيقة وعلم مني نقصاً اطلق به لسانه ، فان كان صادقاً فنفسي احق بأن ألوم منه ، وانا حينئذ أجدر بالغضب على نفسي مني على من عابني بالحق .

١١٠-وأما امر اخواني فاني لست امسك عن الامتعاض لهم ، لكني أمتعض امتعاضاً رقيقاً لاازيد فيه على ان اندم القائل منهم بضرتي واجعله يتذمم ويعتذر ويخجل ويتنصل ، وذلك بأن اسلك به طريق ذم من نال من الناس ، وان نظر المرء في نفسه والتهمم بأصلاحها اولى به من تتبع عثرات الناس ، وبأن اذكر فضل صديق فابكته على اقتصاره على ذكر العيب دون ذكر الفضيلة وان اقول له : (انه لايرضى بذلك فيك فهو اولى بالكرم منك ، فلا ترضى لنفسك بهذا) او نحو هذا من القول . واما ان أهارش القائل فاحميه وأهيج طباعه واستثير غضبه فينبعث منه في صديقي اضعاف ما اكره ، فانا الجاني حينئذ على صديقي والمعرض له بقبيح السب وتكراره فيه واسماعه من لم يسمعه والاغراء به ، وربما كنت ايضاً في ذلك جانباً على نفسي ما لا ينبغي لصديقي ان يرضاه لي من اسماعي الجفاء والمكروه وأنا لا أريد من صديقي ان يذب بأكثر من الوجه الذي حددت ، فان تعدى ذلك الى أن يساب النائل مني حتى يولد بذلك ان يتضاعف النيل وأن يتعدى ايضاً اليه بقبيح المواجهة ، وربما الى ابوي وابويه على قدر سفه النائل ومنزلته من البذاءة وربما كانت منازعة بالايدي ، فانا مستنقص لفعله في ذلك زار عليه متظلم منه غير شاكر له ، لكني الومه على ذلك أشد اللوم ، وبالله تسع التوفيق .

١١١-وذمني ايضاً بعض من تعسف الامور دون تحقيق باني أضيع مالي وهذه جملة بيانها اني لا أضيع منه الا ماكان في حفظه نقص ديني أو اخلاق عرضي او اتعاب نفسي . فأني ارى الذي احفظ من هذه الثلاثة ، وأن قل ، اجل في العوض مما يضع من مالي ، ولو انه كل ما ذرت عليه الشمس .

١١٢-افضل نعم الله على العبد ان يطبعه على العدل وحبه وعلى الحق وأيثاره فما استعنت على قمع هذه الطوالح الفاسدة وعلى كل خير في الدين والدنيا الا بما في قوتي من ذلك ، ولا حول حول ولا قوة الا بالله تعالى . وأما من طبع على الجور واستسهاله وعلى الظلم واسخفافه فلييئس من ان يصلح نفسه او يقوم طباعه ابداً ، وليعلم انه لايفلح في دين ولا خلق محمود .

١١٣-وأما الزهو والحسد والكذب والخيانة فلم اعرفها بطبعي قط ، وكأني لاحمد لي في تركها لمنافرة جبلتي اياها والحسد لله رب العالمين .

١١٤-من عيب حب الذكر انه يحيط الاعمال اذا احب عاملها ان يذكر بها وكاد يكون شركاً ، لانه يعمل لغير الله عز وجل ، وهو يطمس الفضائل لانه صاحبه لايكاد يفعل الخير حباً للخير لكن ليذكر به .

١١٥-أبلغ في ذمك من مدحك بما ليس فيك لانه نبه على نقصك .

١١٦-وأبلغ في مدحك من ذمك بما ليس فيك لانه نبه على فضلك ، ولقد أنتصر لك من نفسه بذلك وبأستهدافه الى الانكار واللائمة .

١١٧-لو علم الناقص نقصه لكان كاملاً لايخلو مخلوق من عيب فالسعيد من قلت عيوبه ودقت .

١١٨-أكثر ما يكون مالم يظن والحزم هو التاهب لما يظن فسبحان من رتب ذلك ليري الانسان عجزه وافتقاره الى خالقه .

فصل في الاخوان والصداقة والنصيحة

١١٩-أستبقاك من عاتبك وزهد فيك فيك من استهان بسيئاتك .

١٢٠-العتاب للصديق كالسبك للسبيكة ، فاما تصفو وأما تطير .

١٢١-من طوى من اخوانك سره الذي يعنيك دونك ، أخوان لك ممن أفشى سرك ، لان من أفشى سرك فانما خانك فقط ، ومن طوى دونك منهم فقد خانك واسخونك .

١٢٢-لاترغب فيمن يزهد فيك فتحصل على الخيبة والحزي .

١٢٣-لاتزهد فيمن يرغب فيك ، فانه باب من ابواب الظلم وترك مقارضة الاحسان وهذا قبيح .

١٢٤-من امتحن بان يخالط الناس فلا يلق توهمه كله الى من صحب ولايبين منه الا على انه عدو مناصب ، ولايصبح كل غداة الا وهو مترقب من غدر أخوانه وسوء معاملتهم مثل مايترقب من العدو المكاشف فان سلم من ذلك ، فلله الحمد ، وان كانت الاخرى الفى متأهباً ولم يمت هماً .

وأنا أعلمك أن بعض من خالصني المودة واصافني أياها غاية الصفاء في حال الشدة والرخاء والسعة والضيق والغضب والرضى ، تغير على أقبح تغير بعد أثنى عشر عاماً متصلة في غاية الصفاء ، ولسبب

لطيف جداً ما قدرت قط انه يؤثر مثله في احد من الناس ، وما صلح لي بعدها ، ولقد أهمني ذلك سنين كثيرة هماً شديداً . فلا تستعمل مع هذا سوء المعاملة فلتحق بذوي الشرارة من الناس واهل الحب منهم .

١٢٥-ولكن ها هنا طريق وعرة المسلك شاقة المتكلف يحتاج سالكها الى ان يكون أهدى من القطا واحذر من العقعق حتى يفارق الناس راحلاً الى ربه تسع وهذه الطريق هي طريق الفوز في الدين والدنيا يحرز صاحبها صفاء نيات ذوي النفوس السليمة والعقود الصحيحة البراء من المكر والحديعة ، ويحوي فضائل الابرار وسجايا الفضلاء ، ويحصل مع ذلك على سلامة الدهاء وتخلص الخبثاء ذوي النكراء والدهاء

١٢٦-وهي ان تكتم سر كل من وثق بك ، وان لاتفشي الى احد من اخوانك ولا من غيرهم من سرك مايمكنك طيه بوجه ما من الوجوه وان كان اخص الناس بك ، وأن تفي لجميع من أئتمنك ، ولا تأتمن أحداً على شئ من أمرك تشفق عليه الا لضرورة لابد منها ، فارتد حينئذ واجهد وعلى الله تسع الكفايةُ.

١٢٧-وأبذل فضل مالك وجاهك لمن سألك او لم يسألك ولكن من احتاج اليك وأمكنك نفعه وان لم يعتمدك بالرغبة .

١٢٨-ولا تشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عز وجل ولاتبن الا على ان اول من احسنت اليه اول مضر بك وساع عليك فان ذوي التراكيب الخبيثة يبغضون ، لشدة الحسد ، كل من أحسن اليهم اذا رأوه في أعلى من أحوالهم .

١٢٩-وعامل كل احد في الانس اجمل معاملة وأضمر السلو عنه أن فات ببعض الآفات التي تأتي مع مرور الأيام والليالي تعش سالماً مستريحاً .

١٣٠-لا تنصح على شرط القبول ، ولاتشفع على شرط الاجابة ولاتهب على شرط الاثابة ، لكن على سبيل أستعمال الفضل وتأدية ما عليك من النصيحة والشفاعة وبذل المعروف .

١٣١-حد الصداقة الذي يدور على طرفي محدود هو ان يكون المرء يسوءه ما أساء الاخر ، ويسره ما سره . فما سفل عن هذا فليس صديقاً ومن حمل هذه الصفة فهو صديق .

١٣٢-وقد يكون المرء صديقاً لمن ليس صديقه (وأنما الذي يدخل في اباب الاضافة فهو المصادقة فهذا يقتضي فعلاً من فاعلين) اذ قد يحب الانسان من يبغضه ، وأكثر ذلك في الاباء مع الابناء وفي الاخوة مع اخوتهم وبين الازواج وفيمن صارت محبة عشقاً وليس كل صديق ناصحاً لكن كا ناصح صديق فيما نصح فيه .

وحد النصيحة هو ان يسوء المرء ماضر الاخر ساء ذلك الاخر ام سره وان يسره مانفعه سر الاخر ام ساءه . فهذا شرط في النصيحة زائد على شروط الصداقة .

١٣٣-وأقصى غايات الصداقة التي لا مزيد عليها من شاركك بنفسه وماله لغير علة توجب ذلك ، وآثرك على من سواك . ولولا اني شاهدت مظفراً ومباركاً صاحبي بلنسية ، لقدرت ان هذا الخلق معدوم في زماننا ، ولكني ما رأيت قط رجلين استوفيا جميع أسباب الصداقة مع تأتي الاحوال الموجبة للفرقة غيرهما .

١٣٤-ليس شيئ من الفضائل أشبه بالرذائل من الاستكثار من الاخوان والاصدقاء . فان ذلك فضيلة تامة مركبة ، لانهم لايكتسبون الا بالحلم والجود والصبر والوفاء والاستضلاع والمشاركة والعفة وحسن الدفاع وتعليم العلم ، وبكل حالة محمودة . ولسنا نعني الشاكرية و الاتباع ايام الحرمة فاولئك لصوص الاخوان وخبث الاصدقاء والذين يظن انهم اولياء وليسوا كذلك ودليل ذلك انحرافهم عند أنحراف الدنيا ، ولا نعني المصادقين لبعض الاطماع ولاالمتنادمين على الخمر والمجتمعين على المعاصي والقبائح ونيل اعراض الناس والفضول وما لا فائدة فيه فليس هؤلاء اصدقاء ودليل ذلك ان بعضهم ينال من بعض وينحرف عنه عند فقد تلك الرذائل التي جمعتهم ، وأنما نعني أخوان الصفاء لغير معنى الا لله عز وجل ، أما للتناصر على بعض الفضائل الجدية وأما لنفس المحبة المجردة فقط ولكن أذا حصلت عيوب الاستكثار منهم وصعوبة الحال في ارضائهم والغرر في مشاركتهم وما يلزمك من الحق لهم عند نكبة

تعرض لهم (فأن غدرت بهم او أسلمتهم لؤمت وذمت وان وفيت أضررت بنفسك وربما هلكت ، وهذا الذي لايرضى الفاضل بسواه اذا تنشب في الصداقة اه اذا تنشب في الصداقة) وأذا تفكرت في الهم بما يعرض لهم وفيهم من موت او فراق ، او غدر من يغدر منهم كان السرور بهم لايفي بالحزن الممض من اجلهم

١٣٦- وليس في الرذائل شيئ أشبه بالفضائل من محبة المدح ، لانه في الوجه سخف ممن يرضى به ، وقد جاء في الاثر في المداحين ما جاء الا انه ينتفع به في الاقصار عن الشر والتزيد من الخير وفي ان يرغب في مثل ذلك الحلق الممدوح من سمعه . ولقد صح عندي ان بعض السائسين للدنيا لقي رجلا من اهل الاذى للناس ، وقد قلد بعض الاعمال الخبيثة فقابله بالثناء وبانه قد سمع شكره مستفيضاً ووصفه بالجميل والرفق منتشراً ، فكان ذلك سبباً الى اقصار ذلك الفاسق عن كثير من شره .

١٣٧-بعض أنواع النصيحة يشكل تمييزه من النميمة لان من سمع أنساناً يذم أخر ظالماً له او يكيده فكتم ذلك عن المقول فيه والمكيد، كان الكاتم لذلك ظالماً مذموماً ، ثم ان اعمله بذلك على وجهه كان ربما قد ولد على الذام والكائد ما لم يبلغ استحقاقه بعد من الاذى فيكون ظالماً له ، وليس من الحق ان يقتص من الظالم باكثر من قدر ظلمه والتخلص من هذا الباب صعب الا على ذوي العقول .

١٣٨- والرأي للعاقل في مثل هذا ان يحفظ المقول فيه من القائل فقط دون ان يبلغه ما قال لئلا يقع في الاسترسال اليه فيهلك واما في الكيد فالواجب ان يحفظه من الوجه الذي يكاد منه بالطف ما يقدر في الكتمان على الكائد ، وابلغ مايقدر في تحفيظ المكيد ولا يزد على هذا شيئاً .

١٣٩-واما النميمة فهي التبليغ لما سمع مما لاضرر فيه على المبلغ اليه وبالله تسع التوافيق

النصيحه مرتان ، فالاولى فرض وديانة ، والثانية تنبيه وتذكير ، واما الثالثة فتوبيخ وتقريع وليس وراء ذلك الا التراكل واللطام ، وربما اشد من ذلك من البغي والاذى اللهم الا في معاني الديانة فواجب على المرء ترداد النصح ، رضى المنصوح او سخط تاذى الناصح بذلك او لم يتاذ .

اذا نصحت فانصح سرا الا جهرا او بتعريض لا بتصريح الا لمن لايفهم فلا بد من التصريح له ولا تنصح على شرط القبول منك ، لايفهم فلا بد من التصريح له . ولا تنصح على شرط القبول منك ، فان تعديت هذه الوجوه ، فانت ظالم لا ناصح ، وطالب طاعة لا مؤدي حق ديانة واخوة وليس هذا حكم العقل ولا حكم الصداقة ، ولكن حكم الامير مع رعيته والسيد مع عبيده .

١٤٠- لا تكلف صديقك الا مثل ما تبذل له من نفسك فان طلبت اكثر فانت ظالم . لاتكسب الا على شرط الفقد ، ولاتتول الا على شرط العزل ، والا فانت مضر بنفسك خبيث السيرة .

١٤١- مسامحة أهل الاستئثار والاستغنا م والتغافل لهم ليس مروءة ولا فضيلة ، بل هو مهانة وضعف وتضربة لهم على التمادي على ذلك الخلق المذموم وتغبيط لهم به وعون لهم على فعل ذلك السوء وانما تكون المسامحة مروءة الفضل ان يعاملوهم بمثل ذلك لاسما ان كانت حاجتهم امس وضرروتهم أشد .

١٤٢-فان قال قائل : (فاذا كان كلامك هذا موجباً لاسقاط المسامحة والتغافل للاخوان ، فقد أستوى الصديق والعدو والاجنبي في المعاملة ، وهذا فساد ظاهر) . فنقول ، وبالله تسع التوفيق ، كلاماً ما يخص الا على المسامحة والايثار .

١٤٣- التغافل ليس لاهل التغنم لكن لصديق حقاً : فأن اردت معرفة وجه العمل في هذا ، والوقوف على نهج الحق فان القصة التي توجب الاثرة من المرء على صديقه ينبغي لكل واحد من الصديقين ان يتامل ذلك الامر فايهما كان امس حاجة فيه وظهر ضرورة لديه ، فحكم الصداقة والمروءة تقتضي للاخر وتوجب عليه ان يؤثر على نفسه في ذلك فان لم يفعل فهو متنغم مستكثر ، لاينبغي ان يسامح البتة ، اذ ليس صديقاً ولا اخاً . فاما اذا أستوت حاجتهما واتفقت ضرورتهما ، فحق الصداقة هاهنا ان يسارع كل واحد منهما الى الاثرة على نفسه ، فان فعلا ذلك فهما صديقان ، وان بدر أحدهما الى ذلك ولم يبادر الاخر اليه ، فان كانت عادته هذه فليس صديقاً ولا ينبغي ان يعامل معاملة الصداقة ، وان كان قد يبادر هو ايضاً الى مثل ذلك في قصة أخرى فهما صديقان .

١٤٤- من أردت قضاء حاجته بعد ان سالك اياها او ارت أبتداءه بقضائها ، فلا تعمل له الا مايريد هو لا ما تريد انت والا فامسك . فان تعديت هذا كنت مسيئاً لا محسناً ، ومستحقاً للوم منه ومن غيره ، لاللشكر ، ومقتضياً للعداوة لا للصداقة .

١٤٥- لاتنقل الى صديقك ما يؤلم نفسه ولانيفع بمعرفته ، فهذا فعل الارذال - ولا تكتمه ما يستضر بجهله فهذا فعل أهل الشر .

١٤٦- لايسرك ان تمدح بما ليس فيك بل ليعظم عمك بذلك لانه نقصك ينبه الناس عليه ويسمعهم اياه سخرية منك وهزءً بك ، ولا يرضى بهذا الا احمق ضعيف العقل . ولا باس ان ذمت بما ليس فيك ، بل افرح به فانه فضلك ينبه الناس عليه .

١٤٧- ولكن افراح ان كان فيك ما يستحق به المدح ، وسواء مدحت به او لم تمدح . وأحزن أن كان فيك مايستحق به الذم ، وسواء ذممت به او لم تذم .

١٤٨- من سمع قائلاً يقول في أمراة صديقه قول سوء فلا يخبره بذلك أصلاً لاسيما أن كان القائل عيابة وقاعاً في الناس ، سليط اللسان أو دافع معرة عن نفسه يريد ان يكثر أمثاله في الناس ، وهذا كثير موجود . وبالجملة فلا يحدث الانسان الا بالحق وقول هذا القائل لايدري احق هو ام باطل ، الا انه في الديانة عظيم ، فان سمع القول مستفيضاً من جماعة وعلم ان اصل ذلك القول شائع وليس راجعاً الى قول انسان واحد ، او اطلع على حقيقته ، الا انه يوقف صديقه على ما وقف هو عليه ، فليخبره بذلك بينه وبينه في رفق وليقل له (النساء كثير) او حصن منزلك وثقف اهلك واجتنب امر كذا وتحفظ من وجه كذا ، فان قبل المنصوح وتحرز فحظ نفسه اصاب ، وان راه لا يتحفظ ولا يبالي امسك ولم يعاوده بكلمة ، وتمادى على صداقته اياه ، فليس في ان لايصدقه في قوله ما يوجب قطيعته ، فان اطلع على حقيقة وقدر ان يوقف صديقه على مثل ماوقف هو عليه وان لايتغير فليجتنب صحبته ، فان رذل لاخير فيه ولابغية .

١٤٩- ودخول رجل مستتر في منزل المرء دليل سوء لايحتاج الى غيره ودخول المرأه في منزل رجل على سبيل التستر مثل ذلك ايضاً ، وطلب دليل اكثر من هذين سخف وواجب ان يجتنب مثل هذه المراة ، وفراقها على كل حال وممسكها لايبعد عن الديائة

١٥٠- الناس في بعض اخلاقهم على سبع مراتب : فطائفة تمدح في الوجه وتذم في المغيب ، وهذه صفة أهل النفاق والعيابين ، وهذا خلق فاش في الناس غالب عليهم ، وطائفة تذم في المشهد والمغيب ، وهذه صفة أهل السلاطة والوقاحة من العيابين ، وطائفة تمدح في الوجه والمغيب وهذه صفة اهل الملق والطمع ، وطائفة تذم في المشهد وتمدح في المغيب ، وهذه صفة السخف والنواكة . واما اهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم في المشاهدة ، ويثنون بالخير في المغيب او يمسكون عن الذم . واما العيابون البراء من النفاق والقحة ، فيمسكون في المشهد ويذمون في المغيب . واما أهل السلامة فيمسكون عن المدح وعن الذم في المشهد والمغيب ومن كل من أهل هذه الصفات قد شاهدناه وبلوناه .

١٥١- اذا نصحت ففي الخلاء وبكلام لين ، ولا تسند من تحدثه الى غيرك تماماً . فان كلامك في النصيحة فذلك أغراء وتنفير وقد تسع (فقول له قولاً ليناً) وقال رسول الله صلعم : (لا تنفر وأن نصحت بشرط القبول منك فانت ظالم ولعلك مخطئ في وجه نصحك فتكون مطالباً بقبول خطئك وبترك الصواب).

١٥٢- لكل شيئ فائدة ولقد انتفعت بمك اهل الجهل منفعة عظيمة وهي انه توقد طبعي واحتدم خاطري وحمي فكري وتهيج نشاطي ، فكان ذلك سبباً الى توالف لي عظيمة المنفعة واولا استئارتهم ساكني ، واقتداحهم كامني ما انبعثت لتلك التواليف .

١٥٣- لاتصاهر الى صديق ولاتبايعه ، فما رائينا هذين العملين الا سبباً للقطعية ، وان ظن أهل الجهل أن فيهما تاكيد للصلة . وليس كذلك لان هذين العقدين داعياً كل واحد الى طلب حظ نفسه ، والمؤثرون على أنفسهم قليل جداً فذا أجتمع طلب كل حظ نفسه والمؤثرون على أنفسهم قليل جداً فاذا أجتمع كل مرئ حظ نفسه وقعت المنازعة ، ومع وقوعها فساد المودة واسلم المصاهرة مغبة ، مصاهرة الاهلين

بعضهم بعضاً ، لان القرابة تقتضي الصبر ، وان كرهوه لانهم مضطرون الى ما لاأنفكاك لهم منه من الاجتماع في النسب الذي توجب الطبيعة لكل احد الذب عنه والحماية له .

فصل في انواع المحبة

١٥٤-وقد سئلت عن تحقيق القول فيها وفي انواعها : المحبة كلها جنس واحد ، ورسمها أنها الرغبة في المحبوب وكراهة منافرته والرغبة في المقارضة منه بالمحبة وانما قدر الناس انها تختلف من اجل اختلاف الاغراض فيها وانما اختلف الاغراض من اجل اختلاف الاطماع وتزايدها وضعفها وانحسامها فتكون المحبة لله عز وجل وفيه وللاتفاق على بعض المطالب وللاب والابن والقرابة والصديق والسلطان ولذات الفرش والمحسن والمأمول وللمعشوق ، فهذا كله جنس واحد اختلفت انواع كما وصفت لك على قدر الطمع فيما ينال من المحبوب فلذلك اختلفت وجوه المحبة . وقد رأينا من مات أسفاً على ولده كما يموت العاشق اسفاً على معشوقه وبلغنا عمن شهق من خوف الله تسع ومحبته فمات .
ونجد المرء يغار على سلطانه وعلى صديقه كما يغار على ذات فراشه وكما يغار العاشق على معشوقه .

١٥٥-فأدنى أطماع المحبة ، ممن تحب الحظوة منه والرفعة لديه والزلفة عنده أذا لم تطمع في اكثر ، وهذه غاية أطماع المحبين لله تسع .

١٥٦-ثم يزيد الطمع في المجالسة ثم في المحادثة والمؤازرة . وهذه اطماع المرء في سلطانه وصديقه وذوي رحمة .

١٥٧-وأقصى اطماع المحب ممن يحب المخالطة بالاعضاء اذا ذلك ولذلك نجد المحب المفرط المحبة في ذات فراشه يرغب في جماعها على هيئات شتى في اماكن مختلفة ليستكثر من الاتصال ويدخل في الباب الملامسة بالجسد والتقبيل ، وقد يقع بعض هذا الطمع في الاب في ولده فيتعدى الى التقبيل والتعنيق .

١٥٨-وكل ماذكرنا ، انما هو على قدر الطمع فاذا أنحسم الطمع عن شيئ ما لبعض الاسباب الموجبة له مالت النفس الى ماتطمع فيه .

١٥٩-ونجد المقر بالرؤية لله عز وجل شديد الحنين اليها عظيم التروح نحوها ، لايقنع بدونها لانه يطمع فيها ونجد المنكر لها لاتحن نفسه الى ذلك ولايتمناه اصلا لايطمح فيه ونجده يقتصر على الرضى والحلول في دار الكرامة فقط لانه لاتطمح نفسه في اكثر .

١٦٠-ونجد المتحل لنكاح القرائب لاقنع منهن بما يقنع المحرم لذلك ولا تقف محبته حيث تقف محبة من لايطمح في ذلك ، فنجد من يستحل نكاح ابنته اخيه كالمجوس واليهود لايقف من محبتها حيث يقف المسلم بل نجدها يتعشقان الابنة وابنة الاخ كتعشق المسلم من يطمع في مخالطته بالجماع ولا نجد مسلماً يبلغ ذلك فيهما ولو أنهما اجمل من الشمس وكان هو اعهر الناس واغزلهم فان وجد ذلك في النذرة فلا نجده الا من فاسد الدين ، قد زال عنه ذلك الرادع فانفسح له الامل وانفتح له باب الطمع .
ولا يؤمن من المسلم ان تفرط محبته لابنه عمه حتى تصير عشقاً وحتى تتجاوز محبته لها لابنته وابنة اخيه وان كانتا اجمل منها لانه يطمع من الوصول الى ابنة عمه حيث لايطمع من الوصول الى ابنته وابنته اخيه ونجد النصراني قد امن ذلك من نفسه في ابنة عمه ايضاً لانه يطمع منها في ذلك ولايامن ذلك من نفسه في اخيه من الرضاعة لانه طامع بها في شريعته .

١٦٢– فلاح بهذا عياناً ما ذكرنا من ان المحبة كلها جنس واحد لكنها تختلف انواعها على قدر اختلاف الاغراض فيها .

١٦٣- والا فطبائع البشر كلهم واحدة الا ان للعادة والاعتقاد الدياني تاثير ظاهراً .

١٦٤ – ولسنا نقول ان الطمع لع تاثير في هذا الفن وحده لكنا نقول ان الطمع سبب الى كل هم حتى في الاموال والاحوال فاننا نجد الانسان يموت جاره وخاله وصديقه وابن عمته لام وابن اخيه لام وجده ابو امه وابن بنته فاذا لا مطمع له في ماله ، ارتفع عنه الهم لفوته عن يده ، وان جل خطره وعظم مقداره فلا سبيل الى ان يمر الاهتمام شيئا منه بباله حتى اذا مات له عصبته على بعد او مولى على بعده حدث له الطمع في ماله وحدث له من الهم والاسف والغيض والفكرة بفوت اليسير منه على يده امر عظيم .

١٦٥- وهكذا في الاحوال : فجد في الانسان من اهل الطبقة المتاخرة لايهتم من انقاذ من امور بلده دون امره ولا لتقريب غيره وابعاده حتى ، اذا حدث له طمع في هذه المرتبة حدث له من الهم والفكرة والغيظ امر ربما قاده الى تلف نفسه وتلف دنياه واخره .

فالطمع اذا اصل لكل ذل ولكل هم ، وهو خلق سوء ذميم .

١٦٦- وضده نزاهة نفس وهذه صفة فاضلة متركبته من النجدة والجود والعدل والفهم قلة الفائدة في استعمال ضدها فاستعمالها وكانت فيه نجدة انتجت له عزة نفسه فتنزهه ، وكانت فيه طبيعة سخاوة نفس فلم يهتم لما فاته ، وكانت فيه طبيعة عدل حببت اليه القنوع وقلت الطمع فاذا نزاهة النفس متركبة من هذه الصفات ، فالطمع الذي هو ضدها متركب من الصفات المضادة لهذه الاربع صفات وهي الجبن والشحة والجور والجهل . ١- ١٦٦- والرغبة الطمع مستوفي متزايد مستعمل، ولولا الطمع ماذل احد لاحد . وأخبرني ابو بكر بن الفياض قال : كتب عثمان بن محاسن على باب داره بأستجة (ياعثمان لا تطمع) .

منابع اخلاقية ومهنة التعليم :-

لحرفة التعليم قواعد واسس واخلاقيات وبرامج ومتابعة واصوليات تربوية دينية ودنيوية لآنها تعمل على بناء المجتمع والمعلم له الثواب والعقاب في الدنيا والاخرة كما ورد بالأبيات الشعرية :-

الخط يبقى زمانا بعد كتابته وكاتب الخط تحت التراب مدفون

يا رب اغفر لعبدا كان كتابته ياقارى الخط قل يا ربي امين

صنف المربي ابو الحسن علي القابسي القيرواني (ت ٤٠٣ هـ) كتابا بعنوان :

((الرسالة المفصلة لا حوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين)) اورد فيها ملاحظات وتوصيات تربوية عن اخلاقية التعليم.

الاحترام:- من اسمى منابع الاخلاق في حرفة التعليم ، ويجب احترام حقوق الوالدين وقد امرنا سبحانه وتعالى ((وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)) الاسراء :٢٤

تتحمل الاسرة تربية الابناء على احترام القيم السماوية ، ويمنحه من مخالطة اهل السواء ولالتزام بقواعد الاسلام ومحاسبة الابناء على الاخطاء والعمل على تصويبها وعدم تكرارها، وزرع افضل القيم الاخلاقية في نفوس الابناء ومتابعة علاقاتهم مع الاخرين، وعلى الرجل ان يؤدب زوجته كما أمر الله تعالى بقوله((وَاللاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا)) النساء:٣٤

يذكر المربي القابسي عن ادب المرأة الزوجة ((يجب عليها ان تطيعه فيه، اذا كان هو مؤديا اليها حقوقها ، وسالما من ظلمها ، فله ان يؤدبها عليه ، وادبه، اياها يكون بقدر استئصالها ..... ولا يتجاوز فيه ادبه لها كأدب المعلم لصبيانه، سالما من العطب والحمية ، لأنه انما يؤديها لمصلحتها له ولنفسها))الرسالة ص[١٧٥] .

على الأب والأم متابعة الطفل وتأديبه كما اكد القابسي بقوله ((وادبه لابنه الصغير هو مأمور فيه حتى يظهر منه الجفاء وسوء الخلق ، فيزجر عنه، انما السبيل في ادب من يريد صلاحه ان يؤديه في غير عطب ولا حمية، اذ هو ليس على باب العداوة وكذلك عبده وامته اليه آدابهما فيؤدب كل واحد منهما على قدر جرمه أدبا عدلا ليس لعددِه حد يقتصر عليه))الرسالة ص [١٧٥]

على المعلم احترام مشاعر الطلبة في الثواب والعقاب الذي لا يصل الى حد العنف فقد اشار المربي القابسي عن ذلك بقوله ((عما يتعدى به المعلم في ضرب الصبي ، فترقى الى ما هو اكثر من الضربة، فهذا انما يقع من المعلم الجافي الجاهل، وقد قدمت لك نهى المعلم عن ضرب السبي وهو غضبان، والضرب على التعليم انما هو لخطأ الصبيان ،فما يصلح ان يضربهم به انما هي الدُرةُ- السوط من جلد البقر- وتكون ايضا ربطة مأمونة ،لئلا تؤثر أثر سوء. وقد اعلمت انه يجتنب ضرب الراس والوجه، فما لهذا ان يضرب بالعصا واللوح)) الرسالةص[١٧٠] يجب على المعلم ان لا يلجأ الى العقاب بقدر ما يثقف ويشير ويؤكد على عدم ممارسة الاخطاء لتلاميذه فالنصيحة تعتبر عن الاحترام، وان يزرع روح المحبة لشخصه ولدرسه، لا العنف والزجر والتخويف والترويع والتهديد بالرسوب والفشل وغرس اليأس في نفوس الطلاب وهو دليل على فشل المعلم وعجزه.

ومن فضائل اخلاقية التعلم ونجاح العملية التربوية وهو تلقين التلاميذ المواد المقررة وايصالها الى عقولهم مع توجيهات ونصائح لبناء مستقبل الابناء والخدمة الاجتماعية .

يؤكد المربي القابسي على اهمية المعلم ودوره في نجاح تلقين التلاميذ بقوله ((وانتفاع الصبيان بالمعلم قد نالوه في القدر الذي علمهم اياه ، فبايِ وجه يطرح ذلك عن اباء الصبيان، وهم مأخوذين بجميعه، اذا استكملوا الختمة على شرطهم من ظاهر او نَظَرٍ؟)) الرسالة ص[١٦٣] .

على الاباء متابعة فائدة ابنائهم الطلبة في التعليم واذا لم ينتفعوا من المعلم بالمدرسة عليه ان ينقله الى مكان فيه فائدة كما جاء عند القابسي بقوله((وكذلك اباء الصبيان اذا لم يكن عليهم شرط يمنعهم من اخراج ابنائهم لم يلزم التمادي فليس لهم من ذلك))الرسالة ١٦٣ .

مما اكد عليه علماء التربية والاجتماع براعة المعلم وثقافته في اللغة العربية كما جاء بالنص: ((ونحن نوجب للمعلم الحذقة ،ونرى اب بحكم له بها في النظر والظاهر على قدر الغلام النظر، وليس لها قدر معلوم ، وليس كل الناس فيها سواء، وليس ذو الفقر من الاباء كغيره من الغنى)) الرسالة [١٦١].

وردت وصايا عند علماء التربية في التراث في حث الابناء الدعوة الى طلب العلم أذ ذكر ابو الوليد الباجي الاندلسي في رسالة :

العلم في سبيل لايفض بصاحبه الا السعادة ، ولايقتصر به على درجة الرفعة والكرامة ، قليله ينفع وكثيرة يعلى ويرفع ، ولايخاف عليه سارق ولا محارب فأشتهدا في طلبه ، أستعذ بالتعب في حفظه ، والسهر بدرسه ، وكل ذي ولايته وان جلت ، وحرمة وأن عظمت ، أذ خرج عن ولايته ، أو زال عن بلدته ، أصبح من جاهه عارياً ، ومن حاله عاطلاً غير صاحب العلم (١)

أما وصية المؤرخ والوزير الغرناطي ابن الخطيب التلمساني لابناءه ذكر فيها :- (وأعلموا ان بالعلم تستعمل وظائف هذه الالقاب ، وتجلى محاسنها من بعده الانتقاب ، .... والعلم هو السبيل في الاخرة الى السعادة ، وفي الدنيا الى المحلة أعادة ، والذخر الذي قليله يشفع ، وكثيره ينفع لايغلبه الغاضب ولايسلبه العدو الناصب ولايبتزه والدهر أذ نال ، ولا يستاثر به البحر اذ هال ، من لم ينله فهو ذليل وان كثرة اماله وقليل اوان جم ماله) (٢)

كما وردت نصائح في تعليم الولد القران الكريم واللغة في كتب التراث عند الماوردي بقوله :

فأذا بلغ مبلغ التاديب والتعليم ، فالوجه ان يبدا ، في هذه الملة خاصة في تعليم القران مع اللغة العربية لانها اللغة الذي انزل الله بها كتابه وخاطب بها في شرائع دينه وفرائض ملتهوبها بلغ رسوله (ص) وعلم سنته وبها الفت الكتب مع ان بهذه اللغة من الفضيلة ماليست من اللغات من الفصاحة والبيان ، والطلاوة على اللسان ، والحلاوة في الاسماع والاديان وكثرة التصاريف واحتمال المقاييس انحوية وسعة اللفاظ وتوسط الحروف بين القلة والكثرة ، وأشباه هذه الخصال ما لو تعلمت تجملاً ، واستفيدة تعجباً لكانت لذلك موضعاً ، ولهذه كانت ملوك العجم يتعلمونها) (٣)

الخاتمة والاستنتاجات:

توصل البحث الى جملة ملاحظات مهمة عند المؤرخين الاندلسيين تعبر عن سيرتهم وثقافتهم وامانتهم العلمية وحبهم للخير وخدمة المجتمع وكانوا لايبغون من الاخرة سوى رضا الله وتقديم الخدمات للابناء من الشباب في بلد الاندلس

وكان ابن حزم القرطبي العلامة الاندلسي الذي تربى في المسجد الجامع بقرطبة قد تتلمذ على كبار العلماء والفقهاء ، فكتب مجموعة مصنفات وكان من بينها كتابه الاخلاق والسير انموذجاً رائعا لما وصل اليه علماء الاندلس من العطاء الحضاري لخدمة الانسانية.

قدم لنا ابن حزم القرطبي اروع صور للايجابيات التي امتاز بها المجتمع الاندلسي والمشاكل التي واجهته ووضع لها النصائح ليستفاد منها الابناء في السير في الطريق الصحيح لبناء العائلة وخدمة الفكر الاسلامي.

حذر ابن حزم الابناء من عدم السير في الطرق الشائكة وان تكون الصداقة مبنية على الاخلاق والقيم الاسلامية.

اما الرسالة التي وردت عن المربي القابسي ففيها من المعلومات المتنوعة بتوجيهاتوالنصائح للمربي المعلم والتلميذ الذي ينهل منه القيم ولاخلاق وبها تحذيرات من اجل خلق جيل من الابناء ينفع البشرية.

وقد اوردنا نموذجين لتوجيهات كبار علماء الاندلس في مجال التاكيد على العلم واهميته وقيمته لخدمة البشرية وهما للوزير العالم ابن الخطيب الغرناطي الذي وجه نصائحة الى اولاده مثلما جاء برساله اخرى قدمها القاضي ابو الوليد الباجي الى ابنائه يحثهم على التعلم والسعي للحصول على ماينفعهم اقتدائا بالسيرة المحمدية التي اكدت على ان العلم النافع هو المطلوب (والعياذ بالله من علم لاينفع وعين لاتدمع وقلب لايخشع).

امتاز علماء الاندلس بانهم موسوعيون شاركوا في كل العلوم الانسانية والصرفة وكانوا مثالا للحضارة الاسلامية لايبيعون ما يكتبون هو في حادثة اوردتها المصادر ان الامير مجاهد العامري حاكم (بلنسية) من عصر الطوائف حاول ان يفرض اسمه على كتاب صنفه عالم باللغة العربيه (التياني) وقدم له مبلغ من المال مقدرة الف دينار ذهبي تظاهرا بحبه للعلم لكن ذلك العالم رفض العرض والمبلغ موجها له انتقاده وجوابه (صنفته الى سبحانه وتعالى صدقة جارية لا ابغي سوى رضاه؟ ولو عطيتني كنوز الدنيا لما قمت بذلك).

بهذه الصورة الرائعة بنيت الحضارة الاندلسية الاسلامية في اسبانيا اكثر من ثمانية قرون وانجبت تلك الحضارة مصنفات لاتعد ولا تحصى ولا زالت على الرغم مما احرقه الحاقدون من عصابات الكنائس ومنهم الكاردينال خمينث الذي احرق حوالي اربعة ملايين كتاباً حضاريا في ساحة الرملة وسط غرناطة باحتفال اقيم له لهذا العمل الحقود وقد تباكت عيون المثقفين من النصارى على ما جرى وانتقدتة كل المصادر النصرانية والاسلامية لانه اضاع كنوز المعرفة بحقده وتعصبة.

الهوامش

(١) نقلا عن د.احسان عباس / تاريخ الادب الاندلسي (عصر سيادة قرطبة) ، ص ٢٤٦، ٣٣١
(٢) أبن بسام الشنتريني / الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس بيروت، ياقوت الحموي / معجم الادباء ج ٢٤٩/١٢.
(٣) طوق الحمامة في الفة والالالف ، /ص٩٢.
(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ص١٤١ ينظر أبن سعيد المغربي / المغرب في حلى المغرب / ج٣٥٥/١.
(٥) طوق الحمامة في لفة والاف / ص ٨٢.
(٦) المصدر السابق ، ص١٧ عرض ودراسة ابواب وفصول كتاب الاخلاق والسير،لابن حزم القرطبي الاندلسي* .
(٧) وصية القاضي ابي الوليد الباجي لولديه تحقيق ، وتعليق د. جودة عبد الرحمن هلال ، مقالة نشرت في مجلة المعهد المصري بالدراسات الاسلامية في مدريد ، مجلد ٢ ص١٩ .
(٨) المقري ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقبق د. احسان عباس ،دار صادر ، بيروت ١٩٦٨ ج٣ ص٢٩ – ٣ وردة في ترجمة ابا عيد المغربي وقصيدته التي اوصى بها ابناءه .
(٩) الماوردي ت ٤٥٠ هـ ، نصيحة الملوك ، تحقيق محمد جاسم الحديثي بغداد ١٩٦٨ ص٣٠٥ .